بسم الله الرحمن الرحيم

الدرس السادس عشر **الأستاذ: سماحة العلامة الشيخ معين دقيق**

الدرس: تفسير القرآن الكريم **المبحث: سورة لقمان**

التاريخ:2021\10\ 26م **كتبه: عبدالله ضيف الستري البحراني**

ما زال البحث في قوله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُواً أُولئِكَ لَهُمْ عَذابٌ مُهِينٌ﴾[1]

أشرت في البحث السابق إلى أسلوب من الأساليب التي استعملها القرآن الكريم، وللأسف الشديد لم يعطى حقه لا في الدراسات القرآنية ولا في الدراسات البلاغية والأدبية؛ لأن علماء التفسير في الأعم الأغلب انطلقوا من تفسير تجزيئي، فلم تحصل المقارنة بين الأشباه والنظائر، وعلماء البلاغة والأدب انشغلوا -في الواقع- في إشكالية اللفظ والمعنى، أيضاً بنظرة تجزيئية، ومن الأمور التي أخرت في الواقع وتعتبر عقبة في سبيل تقدم الدراسات الأدبية والبلاغية لفهم إعجاز القرآن الكريم على حقيقته هو أن البلاغة المدرسية عندنا اهتمت في مسألة شرح كلمات من سبقها، فدخلت أنه ما هو مقصود فلان من هذه العبارة؟ وهل هذه العبارة يرد عليها إشكال؟ وما شابه ذلك، فضيعت عليها فرصة النظر إلى الأساليب القرآنية، وإلى النظم القرآني بشكل عام، وهذه هي مشكلة ما يعرف بمدرسة السكاكي، ولو أن هذه المدرسة سارت على وفق ما أبدعه الجرجاني في كتاب إعجاز القرآن الكريم لطورت هذه الأساليب وهذا الفهم، ولأنارت الطريق لمن جاء بعدها لنكات إعجازية في القرآن الكريم، لكن للأسف سارت على هذا المنهاج الذي نعرفه.

القرآن الكريم استعمل هذا الأسلوب الذي يسميه الجرجاني بالاستطراف، وأن يعد الشيء طريفاً، وفيه شيء من التشديد، ونقل المتلقي والمخاطب من صورة إلى صورة أخرى مع مقارنة بينهما، ومن أبرز أمثلته في القرآن الكريم ما نشهده في هذه الآية والآية التي قبلها، كما تقدم في مفتتح هذه الصورة

[1] لقمان 6

التي نبحث عنها، أشارت الآيات إلى آيات الكتاب الحكيم وقسمت الناس في موقفها من آيات القرآن الحكيم إلى طائفتين:

الطائفة الأولى: تلك الطائفة التي تنتفع من آيات القرآن الحكيم ومن الذكر الحكيم خير انتفاع، وهم المحسنون، ثم بينت الآية بعد ذلك خط مشي هؤلاء، وحركة هؤلاء ضمن مسارين: مسار الالتفات إلى حق من خلال إقامة الصلاة، ومسار الالتفات إلى الخلق من خلال إتيان الزكاة. فهؤلاء الذين ينتفعون خير انتفاع من الذكر الحكيم، وهم أهل الاحسان سيرهم وسلوكهم وخط مشيهم على هذين المحورين: محور الالتفات إلى الحق محور العبودية، ومحور الالتفات إلى الخلق محور العطاء وكرم النفس. حينئذ تتكامل العبودية مع هذا العطاء، ويعرف أن المتدين الكامل الذي أضفت الآية عليه خلعة الإحسان لا يكون إلا بين هذين المسارين، وأن الوقوف على أحدهما إما يرجع إلى رهبانية ولا رهبانية في الإسلام وإما يرجع إلى عبادة الأنا، وليس هي عبادة الله الواحد القهار.

ثم بينت لنا الآيات بعد ذلك أن تحرك أهل الإحسان على هذين المسارين والمحورين نشأ من يقينهم بالآخرة، وما يحمله هذا اليقين بالآخرة من سلسلة من الاعتقادات الكلامية التي ارتقوا إليها إلى أن وصلوا إلى اليقين في الآخرة، لكن كما أشرت سابقاً هذا لوحده لا يحرك جميع طبقات المجتمع، فإن أكثر طبقات المجتمع محكومون بالربح والخسارة، أكثر طبقات المجتمع على مسار عبادة التجار لا على مسار عبادة الأحرار، فلأجل ذلك جاءت بمحفز آخر لتخاطب هذه الطبقة المنتشرة في المجتمع التي تنطلق من منطلق الربح والخسارة، فكان لابد لهؤلاء من محرك ومشوق ومرغب يدفع عجلتهم نحو الطاعة، فجاء قوله تبارك وتعالى: ﴿أُولئِكَ عَلى هُدىً مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴾[2] ومن ذا الذي لا يريد هذه الفائدة، أن يكون في الدنيا على هداية وفي الآخرة على فوز وفلاح وعطاء.

الطائفة الثانية: أولئك الذين ليسوا فقط لا ينتفعون بآيات الذكر الحكيم، بل يشوشون عليها، ويقفون مانعاً وشياطين أمام الآخرين في الاستفادة منها، فجاء قوله تبارك وتعالى: ﴿يَشْتَري لَهْوَ الْحَديثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبيلِ اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَ يَتَّخِذَها هُزُواً﴾

[2] لقمان 5

فإذا أردنا أن ندرس المقابلة بين الفئتين والطائفتين وبين هاتين الصفحتين، نجد أن هذه المقابلة التي اجريت في هذه الصورة في أعلى مراتبها، فنجد المقابلة في العنوان والاسم، الطائفة الأولى عنوانها المحسنون، أهل الإحسان، الطائفة ثانية عنوانها الناس؛ لأن الآية قالت ﴿وَمِنَ النَّاسِ﴾ استعملت هذا العنوان المبتذل الذي تعارف في القرآن الكريم على إطلاقه على الهمج الرعاع، إذن هناك مقابلة في العنوان، هذا المقلب هم أهل العلم الإحسان، وهذا المطلب الآخر هم ليس لديهم ما يمكن أن نخاطبهم به إلا ذلك العنوان الأولي المبتذل الذي يطلق على أراذل الناس.

قابل أيضاً بالحركة العملية، فأهل المقلب الأول يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة، وأهل المقلب الثاني الذين يقابلونهم حركتهم العملية تكمن في المتاجرة بأدوات تنسجم مع ذواتهم، تدخل تحت اللهو والعبثية؛ لغرض صد الناس عن عبادة الله الواحد القهار، هذه حركة عملية وهذه حركة عملية.

ثم قابل بينهم في المحرك، المحرك الذي يحرك الطائفة الأولى والتي إلى دعتها إلى إقامة الصلاة وإيتاء الزكاة هي الإيقان بالآخرة، فالذي دعا فئة أهل الإحسان إلى المشي على ذلك المسار المتقدم والذي حركهم على ذلك أنهم وصلوا إلى مرحلة رأوا فيها النار، رأوا فيها الجنة، أيقنوا بالآخرة، بينما في هذا المقلب وهذه الطائفة لا إيقان لهم، يتخبطون في ظلمات الجهل وعدم العلم، فكانوا على ما هم عليه من أفعال هابطة، ولذا وصفتهم الآية السادسة بقولها ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ الطائفة الأولى أيقنوا بالآخرة، وهؤلاء لا علم لهم، فإذن بينهم تقابل في المحرك.

بعد ذلك قابلت الآية بين الفئتين في العاقبة ﴿أُولَئِكَ عَلَى هُدًى مِنْ رَبِّهِمْ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[3] هذا في المقلب الأول، وفي المقلب الثاني ﴿لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾.

إذن لا يمكن لنا أن نفصل بين العنوان وبين حركة المشي وبين المحرك وبين النتيجة التي يصل إليها السائر في الطريق. فكل يمشي نحو ما عملته أيديهم، وكل طائفة هي التي رسمت عاقبتها، فهذه عاقبة

[3] لقمان 5

قهرية لما مشت عليه كل طائفة، ولذا في الخبر المشهور: الدنيا مزرعة الآخرة.[4] فلا نحصد في الآخرة إلا ما تزرعه أيدينا في هذه الدنيا.

وهذا الأسلوب الطريف في القرآن الكريم قد تكرر في كثير من السور، وما يشبه هذه الصورة التي نتحدث عنها نجده في مفتتح البقرة، ونجده في مفتتح النمل، وهكذا استعمل هذا الأسلوب بشكل ملفت للنظر في القرآن الكريم أمام الذهن كي يقابل بين فئتين، بين الحق والباطل بين الخير والشر؛ ليهتدي أولوا الألباب إلى المسار الصحيح الذي ينبغي أن يسيروا عليه.

[4] عوالي اللئالي العزيزية في الأحاديث الدينية، ج1، ص: 267. وَ قَالَ ص الدُّنْيَا مَزْرَعَةُ الْآخِرَة. كنوز الحقائق في هامش الجامع الصغير، في المحلى بأل من حرف الدال و لفظ الحديث: (الدينار كنز، و الدنيا مزرعة الآخرة).